صور مصر بعد الثورة: «مهمشون» في قلب المشهد

بيسان طيّ

قبل 25 يناير/كانون الثاني الماضي، عاش مثقفون ومسيّسون على هامش الحياة العامة في مصر، لم يكن لصوتهم حضور فاعل. فعل التهميش من الحضور العام، بالنسبة إلى هؤلاء، يمكن اعتباره مضاعفًا لأنهم يحملون مشاريع فكرية وثقافية وسياسية، ولم يختاروا العزلة. كان لهم الدور البارز في المشاركة في الثورة، وفي البحث عن مساحة جديدة في مصر ما بعد 25 يناير/كانون الثاني، هم جزء مهم من الحراك الذي تلا تنحي الرئيس حسني مبارك، موجودون في الميدان دائمًا، إنهم طليعة ما يمكن تسميته بـ «الثورة المستمرة»، مصرون على كل المطالب التي رفعت خلال أيام التظاهر الـ 18، والأهم أنهم يجدون مساحات أوسع لـ «مصالحة» وتفاعل أكبر مع قوى المجتمع المصري ومكوناته المختلفة.

القاهرة بعد الثورة، تتوه الكاميرا في الحارات والميادين والمكتبات والحدائق، تسترق لقطة من هنا وحوارًا من هناك. ويتوه الباحث عن نبض مرحلة ما بعد 25 يناير/كانون الثاني، كيف سيحشر ملاحظاته لتتسع لها صفحات دفتره، الباحث هنا يريد أن يشهد على الثورات العربية، يطلق العنان للكاميرا وللرسوم والقصة والشعر والأبحاث لتتجاور في مشروع «العربي الحر»، يريد أن يجول في كل مدن العرب، لكن القاهرة تشغله بها.

إذًا الكاميرا تتنقل في المدينة المزدحمة، تحاول أن تسجّل الحياة الجديدة في بلد يتأرجح ناسه بين التفاؤل الشديد والوضع الاقتصادي المتراجع، بين تعابير المواطنة «الجديدة» وانتظار القطاف... في النهاية تسجّل كاميرانا أربعة مشاهد حية، في ديكورات متحركة، الأحداث تدور نهارًا وليلًا، والشخصيات شبان وكتاب وفنانون ومناضلون... يخرجون بثقة من العتمة يصاحبهم صوت صلاح جاهين يروي:

«أوصيك يا ابني بالقمر والزهور

أوصيك بليل القاهرة المسحور

وإن جيت في بالك... اشترِ عقد فل
لأي سمرا... وقبري أوعك تزور
عجبي»

المشهد الأول

تضرب سميرة المواعيد في ميدان التحرير ليلًا، بعد الانتهاء من فروض المدرسة، تلتقي بعامر وشادي وبقية «الشلة» أي «القلة المندسة» وفق التسمية «الرسمية» للمجموعة. شبان وشابات تتراوح أعمارهم بين 13 و21 عامًا، التقوا في ميدان التحرير خلال الثورة، أو في منزل «بيار» الملاصق للميدان، ذاك المنزل الذي تحوّل فجأة إلى محطة استراحة للمتظاهرين. هناك كانوا يعدون طعامهم، يستريحون للحظات من تعب المواجهات، ويتكلمون عن مصر التي يريدونها، ولما تقدمت الأحداث، وصار سقوط مبارك مسألة أيام، انهمكت سميرة والأصدقاء بالسؤال الأهم: «ماذا بعد؟»

كانت النقاشات تتشعب ثم تنصب في هم واحد: «كيف نحوّل أدوات التعبير من العالم الافتراضي إلى العالم الملموس؟» أتى الجواب من الأكبر سنًّا «اصنعوا مجلة»، وكان له وقع السحر على أبناء المجموعة.

يوم تنحي مبارك بدأ الإعداد للعدد الأول، التفكير بالمواضيع، بأسرة التحرير، باقتسام المهام، بالطباعة، بالتوزيع، بكيفية التواصل مع كتّاب شباب من خارج المجموعة.

عودة إلى الإنترنت للتعريف بالمجلة، ثم تقسّم العمل... المهم أن العدد الأول صدر، تبرّع صاحب مطبعة في وسط البلد بالطباعة مجانًا في الفترة الأولى.

منذ البداية وجدت المجموعة نفسها أمام أسئلة عملية ومهنية لم تكن قد اختبرتها أو خطرت في بال الشبان الصغار: كيف نفتح الباب لكتّاب من تيارات مختلفة للمشاركة في المجلة؟ كيف نتأكد من صحة المعلومات التي ترد في مقالات وتغطيات من المناطق، ومن القاهرة نفسها؟ كيف نكتب مقالاتنا بأسلوب صحافي؟ وغير ذلك مما تنتجه عملية الانخراط في «مهنة المتاعب».

في المقابل كانت تلك المجموعة الشابة تحمل- بشكل فطري- أجوبة حازمة عن أسئلة الأكبر سنًّا والصحافيين «المخضرمين». بالنسبة لـ«القلة المندسة» إن الكلام عن التمويل والتواصل مع المسؤولين والدعاية نتاج قصر الرؤية. يستغربون السؤال عن المال اللازم للحملة الإعلانية، يجيبون بعفوية ودون تردد، الساحات لنا وجدرانها كذلك، ينزل فنانو الغرافيتي إلى المناطق المزدحمة ويرسمون حملة المجلة.

التوزيع عملية أكثر بساطة، يخرج أعضاء المجموعة إلى الطرقات ويوزعون أعداد

المجلة على المارة، ثم يتسكعون في الزواريب، يتعرفون إلى بائعي الجرائد والمجلات على الأرصفة وإلى أصحاب المكتبات الصغيرة، تقوم بين الطرفين نقاشات وحوارات وأسئلة ومزاح وينتهي الأمر بجسر تم بناؤه بين الباعة المهمشين (من السوق) والمجموعة.

... بعد صدور كل عدد، يعود أعضاء المجموعة إلى حياتهم اليومية: الدراسة، المشاركة في المظاهرات المليونية، الإعداد لحملات دعم لليبيين، لقاءات مع مثقفين وفنانين للبحث في وسائل تحضير نشاطات تضامن مع القضية الفلسطينية.

«القلة المندسة» حملت اسمها من التعابير التي أطلقها النظام السابق، لكن أعضاءها بمعظمهم أولاد مناضلين ومثقفين من السبعينيات، ظلوا يعيشون على الهامش منذ صاروا مطاردين من أجهزة المخابرات، كانوا يلتقون (أي الأهل) أحيانًا في مظاهرات لا يتعدى عدد المشاركين فيها المئات ويحيط بهم الآلاف من رجال الأمن، يحاصرونهم في رقعة منعزلة عن المدينة، ثم يعيدونهم إلى منازلهم أو إلى معتقلات الحجز، لكن شبان وشابات «القلة المندسة» هم أيضًا ـ وبشكل رئيس ـ أبناء جيل يُسقط الحواجز التي رفعها الأكبر منهم، يخرجون من الهامش الذي انزوى فيه أهاليهم ـ رغمًا عنهم ـ ويبحثون التواصل مع فئات مهمشة اقتصاديًّا، يفتحون صفحات مجلتهم الصغيرة بأوراقها الرخيصة (الثمن) لتتسع لكل أبناء مصر، يدعون مناصري الرئيس المخلوع حسني مبارك إلى المشاركة في الكتابة، يرسلون الدعوات عبر الفايسبوك إلى المشاركين في الثورة من الإسكندرية وأسيوط والإسماعيلية، ويتواصلون مع أصدقاء من الصعيد والدلتا وقرى بحري، ومن العشوائيات والأحياء الأكثر فقرًا للانضمام إليهم.

المشهد الثاني

الدكتور خالد فهمي، أستاذ تاريخ القاهرة الحديث في الجامعة الأميركية، يضبط مواعيده في مدينة مزدحمة بالناس والسيارات، بين الصرح العلمي، دار الوثائق المصرية، مكتبات القاهرة... فوسط البلد.

الرجل صاحب كتاب «كل رجال الباشا» الذي صدر في طبعته الأولى عام 2001، ثم في طبعة ثانية العام الجاري، يحكي فيه مرحلة من تاريخ مصر، تحديدًا أيام محمد علي، لكنه لا يكتب هذا التاريخ كسيرة للحاكم بل من خلال قراءة مشاركة المجندين، الجنود، في صناعته. المشاغل تشتت فهمي عن السؤال الأهم، لماذا لاقت الطبعة الثانية (2011) من الكتاب الترويج والنقاش بشكل أكبر من الطبعة الأولى (2001). هو أصلًا لا يملك الوقت للتنبه للأمر، صحافيون ومتابعون، يربطون بين الكتاب وما شهدته مصر هذا العام، الفرد شارك في صناعة مصر الحديثة، وكان سلفه يقاوم محاولات تجنيده من قبل محمد علي.

اليوم يخرج فهمي من أروقة المكتبات الجامعية ليلتقي الأفراد الذين يشاركون في صناعة مصر ما بعد 25 يناير/ كانون الثاني. أناس سجلوا الثورة بكاميرات هواتفهم، آخرون دوّنوا ما عاشوا على الورق وفي صفحات العالم الافتراضي، ومن خلال اللقاءات الإذاعية والتلفزيونية... وثمة من لم يجدوا مساحة ليشهدوا، فظلوا في الظل. هؤلاء بشكل خاص هم المستفيدون من مشروع فهمي ودار الوثائق المصرية لتوثيق الثورة، سيجدون مساحة للتعبير، ستصير لهم أسماء وروايات في وثائق تُنشر في مرحلة قريبة، وتُحفظ في دار الوثائق لتشكّل جزءًا من مراجع المؤرخين. هؤلاء المهمشون من رواية الثورة عشرات الآلاف، خرجوا من الميدان إلى منازلهم، لم يجدوا من يدعوهم إلى تأكيد دورهم، فانزووا في مساحات ضيقة يحكون للأصدقاء أحداث الأيام الـ 18، وهم متنوعون، متعلمون وأقل تعليمًا، محامون و«صنايعية» وأساتذة مدارس ورسامون و...، فقراء وأبناء الطبقة الوسطى، إنهم باختصار أناس لا يملكون سبيلًا إلى أساليب الترويج الجماهيري، لا تستضيفهم شاشات التلفزة ولا تزدحم صفحاتهم في فايسبوك بآلاف الأصدقاء. كما أنهم لم يملكوا الجرأة، أو الرغبة، في افتتاح مدونات خاصة بهم... لكنهم شاركوا في مظاهرات لخلع النظام السابق، ولهم من تلك الأيام ذكريات وشهادات، وعليهم أن يشهدوا كي لا تُمحى أسماؤهم من سجلات الميدان.

أخيرًا، في جعبة المؤرخ، مصالحة جديدة بين الماضي واليوم، تدريس تاريخ القاهرة الإسلامية والحديثة لا يتم في القاعات المقفلة، يخرج مع طلابه إلى حارات الدراسة، مصر الفاطمية، وسط البلد و.... العشوائيات، هناك يبني نظريته الجديدة، سكان هذه المناطق لا يشبهون الصور المُصّدرة عنهم، العشوائيات ليست مرتع التائهين نتيجة الفقر المدقع. عالم العشوائيات غني بحواديته، أبناء تلك المناطق تتفتّق عبقرياتهم عن وسائل عيش لا تشبه في نواحٍ كثيرة ما تتضمنه «كراسات» حقوق الإنسان، ولكنها تساعدهم على التغلب على بؤسهم.

المشهد الثالث

المكان: نقابة الصحافيين

المناسبة: حفل توقيع كتاب «الثورجية» للصحافية هناء زكي

تغص النقابة برجال ونساء بدأ الشيب يخط خطوطه فوق رؤوسهم، هم في أواخر العقد الرابع. أبناء الجيل المولود في الستينيات، الذين تفتح وعيهم على مصر تنقلب عما عرفوه أطفالًا، ثم لما دخلوا الجامعة، ووجدوا فيها مساحة لإبراز صوتهم السياسي كانت مصر تغرق في شبه عزلة عن باقي العالم العربي، وكان التلفزيون الرسمي ينقل رواية السلطة فقط.

عشرات وأكثر، في لمة لا تشبه لقاءات متفرقة جمعتهم بعد الكلية، وبعدما أخذتهم مشاغل الحياة، محامون صحافيون، وفنانون، كلهم كانوا هناك، الكاميرا تبحث عن المشاهير تلتقط وجه خالد يوسف وخالد الصاوي و...

بداية عام 2008، أنهت هناء زكي الكتاب، وسلمت المخطوطة لدار الشروق. لم تكن تقصد تقديم كتاب سياسي، كانت تستعيد تجربة طلاب في جامعة القاهرة (وجامعات أخرى) قاموا بتأسيس «الجمعية العربية للدراسات»، حكت عن قصص الحب، عن المشاوير، عن الرحلات، وعن «النضال»، شبان ناصريو الهوى أودعوا المعتقلات السياسية، ساروا في تظاهرات ضد التطبيع واتفاقية كامب دايفيد، وكان لهم حضور في قاعات المحاكم لدى محاكمة قادة «ثورة مصر» خاصة خالد جمال عبد الناصر ومحمود نور الدين.

طيلة ثلاثة أعوام، كانت مخطوطة هناء حبيسة الأدراج، تسأل الصحافية الأربعينية عن كتابها فتأتيها أجوبة مبهمة، تصدر عن أناس يبدو الحرج في كلامهم. ثم جاءت ثورة 25 يناير/كانون الثاني، فجأة خرج الكتاب، وباح المسؤولون عن إصداره بالسر، مباحث الأمن كانت تمنع نشره لأنه يتحدث عن «الثورجية».

منذ الأيام الأولى للثورة كان هؤلاء الـ «ثورجية» في ميادين الاعتصام والتظاهرات، ركضوا في الزواريب والحارات هربًا من ملاحقات رجال الأمن، كأن الزمن يعود بهم عقدين إلى الوراء، هذا الجري ليس بالممارسة الجديدة بالنسبة إليهم، ولكن شيئًا ما تغير في المشهد، لم يعد رجال الأمن يكبلونهم، ويلاحقونهم في بيوتهم وعلى أبواب جامعاتهم، لم يعودوا وحدهم، معهم أولادهم الذين صاروا هم الآن طلبة جامعيين، ومعهم ملايين المصريين من عمال وفلاحين ومثقفين وليبراليين واشتراكيين وإسلاميين...

في نقابة الصحافة، في ذلك اللقاء، كان «الثورجية» ينعمون بالاعتراف بدورهم. رغم تعتيم الإعلام، صار لهم سجل يروي حكاياتهم. قصتهم بدأت إذًا في بداية الثمانينيات، كانت مصر الرسمية تحارب لتثبيت معاهدة كامب دايفيد في وجدان الشعب، وكان طلبة الجامعات على رأس الرافضين لها. لكن قصة أبناء «الجمعية العربية للدراسات» لم تُروَ، كأنهم مروا مرور الكرام في تاريخ الناشطين والمناضلين من أجل مصر، كأنهم لم يقبعوا في زنازين، ولم يذوقوا أبشع أصناف التعذيب، كأنهم لم يُسحبوا من بيوتهم، كأنهم لم يهربوا إلى ملاجئ متنوعة كي لا تقبض عليهم أيدٍ ترميهم لشهور في عتمات السجن. أبناء الثمانينيات هؤلاء ككل ناشطون في الحقول السياسية، بعضهم أنهى الدكتوراه رغم السجن، واستُقبل في كليته استقبال الأبطال، والبعض ضاع مستقبله، إنهم جزء من «سيرورة»، خط يؤكد أن معارضة السلطة فعل لم يتوقف، لكنهم ظلوا مهمشين لدى الكلام عن المعارضة لأن تجربتهم وقعت في زمن التعتيم.

يوم كتبت هناء زكي «الثورجية» (عام 2008) ختمته كالتالي: «نعم كانت أجمل أيام العمر. رغم كل ما قيل بعد القضية، سمعت مرات ومرات، أن شباب الجمعية الغض، قليل الخبرة بالحياة، تمّ التغرير به في السياسة...

لم يُغرر بنا أحد، ولم ينجح أحد في استغلالنا...
لهذا وبعد مرور 25 عامًا...
أُعلن فراري إلى... نقائنا الثوري، وبما حققناه وسنحققه، بإذن الله منتصرين».

المشهد الأخير

وسط البلد، حي متفرع من شارع شامبليون. الطاولات متناثرة في الزواريب المحيطة بكاراجات تصليح السيارات، نحن في مقهى التكعيبة، أحد أمكنة الصحافيين والفنانين، على بعد خطوات يقع المركز الثقافي «تاون هاوس»، في أحد كاراجات المنطقة، صار مكانًا لعروض مسرحية وتجهيز ومركز للفنون التشكيلية و...

يغص المقهى بمنتظري موعد عرض «دروس في الثورة»، في الوقت الضائع هذا يحكون عن الثورة نفسها، وعما قبلها وبعد. أشياء كثيرة تغيرت، المقهى ما زال على حاله، لكن أصوات الزوار ارتفعت، لم يعد يخيفهم اللقاء، بسخرية يروون كيف كانت تتبعهم عيون أجهزة الأمن ورجالها، كيف كان بعض المخبرين الأغبياء يترصدونهم في تنقلاتهم ويحملون الجرائد أو ينتظرون على بوابة مباني عملهم وفي المقاهي... يتعقبونهم لأنهم موسومون بتهمة معارضة السلطة، لأنهم خرجوا في مظاهرات دعمًا لفلسطين، لأنهم كتبوا عن أفلام جميلة، وانتقدوا الأعمال السطحية، لأنهم ببساطة رفضوا الانتماء إلى ما أنتجه زمن سلطة حسني مبارك.

يمر نادل المقهى بين الطاولات، يلف بـ«الشيشة وواحد شاي واتنين كركدي للأساتذة الصحافيين»، ثم يحمل القهوة و«العصاير» لممثلي فرقة مسرحية... هو يعرف كل واحد ويعرف طلباتهم «حافظهم من قبل الثورة».

إنها الثامنة والنصف، تخلو معظم الطاولات من شاغليها، يزدحم مدخل التاون هاوس بالناس، تتشابك أصوات الباحثين عن مكان على الـ «waiting list» مع قرقعة مطارق وآلات مصلحي السيارات في الكاراجات المحيطة بالمركز، كثيرون سيظلون في الخارج، العرض مجاني، شرط حجز مكان في وقت مبكر، إنه «أداء جسدي وبصري يخط مقالًا سياسيًّا» ويحمل توقيع المخرجة ليلى سليمان ويدمج بين فنون أداء متنوعة.

في مسرح «تاون هاوس» الفاصل بين صالة المتفرجين وخشبة العرض وهمي، لا وجود

له، الصوت يرتفع، ممثلة تغني عبد الودود، أغنية ثورية من أيام مقاومة الاحتلال البريطاني، المتفرجون، وهم بمعظمهم من الجيل الشاب يصفقون للأغنية، يرددونها مع المطربة.

ينتهي العرض على أسئلة مقلقة عن مسار الثورة المصرية. عند مداخل المركز لا تزال أصوات العاملين في الكاراجات تتردد في الأرجاء.... يخلو«تاون هاوس» من رواده، يمتلئ المقهى من جديد، وينطلق الحديث مرة أخرى بصوت عالٍ «كان ياما كان... سلطان جائر قمع مثقفين خارج بلاطه، وبعد ثلاثين عامًا قامت ثورة فأسقطته».

تغييرات المشهد المصري العام، كانت أشبه بإعصار أطاح بأسس كثيرة من الحياة «الساكنة» في القاهرة. الغليان كان محصورًا بفئة من المناضلين المثقفين الذين يلتقون بالمئات في مظاهرات يحيط بها آلاف رجال الأمن فيبدو المتظاهرون عالقين في بؤرة منعزلة عن المدينة، وعن الناس. هؤلاء كانوا سباقين إلى المشاركة في الثورة، ولم يغادروا الميدان يومًا.

منذ شهور يحتل «مهمشون» سابقون مكانة متقدمة من المشهد، أو بشكل أصح فإن مجال الحركة بالنسبة إليهم صار أكثر اتساعًا، وصار لحضورهم وزن فاعل، هل ننسى مثلًا أن رئيس الوزراء السابق أحمد شفيق لم يستقل إلّا من خلال استمرار مظاهرات ضده، وبشكل خاص بعد المواجهة المحتدمة بينه وبين الكاتب علاء الأسواني في حلقة تلفزيونية؟ أم نذيع سرًّا إن قلنا إن فرقة «اسكندريللا» (التي تغني قصائد صلاح جاهين وفؤاد حداد وغيرهما) جذبت اهتمام عدد كبير من المنتجين الذي كانوا يفضلون لعقود الأغاني التجارية؟

لكن هل يعني ذلك أن أولئك «المهمشين» خرجوا نهائيًّا من العزلة التي حُشروا فيها قبل الثورة؟ الإجابة عن السؤال رهينة بالتطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي ستعرفها مصر، ولكن لا ننكر أبدًا أن بعض من كانوا يلعبون أدوارًا جميلة في الكواليس، تقدموا نحو خشبة العرض، بانتظار ان تُسلّط عليهم الأضواء.